عقاب النفس

(تابع ما قبله)

فحفر في الارض حفرة صغيرة و وضع فأسيه فيها وغطاهما بالتراب . . قائلا . . ان زوجة هذا الرجل احتاجت فأساً واحدة وهي امرأة . . فلعل زوجها يحتاج للفأسين وهو رجل قوي . . . قال هذا ضاحكاً و وقف بجانب القبر في انتظار النعش . . حتى اذا جاؤا به تناوله من بين ايديهم وأدخله القبر واغلقه عليه . وأخذ فأسيه وعاد للبلد . . . وعاد المشيعون مع جورج ابن الفقيد يعزونه سائلين المولى ان يلهمه الصبر الجميل

جورج هذا أيها القاريء الكريم ولعلك لم تنسَ هو احد أبطال روايتنا الاولى وهو الآن في الخامسة والثلاثين من العمر . . توفت والدته من عشر سنوات بعد ان ذاقت من وخزات ضميرها عذاباً اليماً . . وكانت آخر لفظة خرجت مع روحها هي . . أستر المسكينة . . .

ونراه الآن يدفن والده أيضاً . التي نغصت حياته تذكارات ابنته المفقودة وفقده امرأته التي كان يحبها . . فنال جزاء الرجل الطماع الذي يشغل كل وقته في العمل لجمع المال غير مخصص بعضه لملاحظة عائلته . . .

فلنسدل الستار الآن على هذه العائلة التي لم يبقَ منها سوى جورج الذي لم يأتِ شيئاً يلام عليه ولنذهب بالقاريء الى موضع آخر ليبصر و يعتبر و يذكر (في يوم الخير كن بخير وفي يوم الشر اعتبر)

. . . . . .

﴿ الفصل الثاني ﴾

« قلب صريع »

جلس وليم بك القاضي في صبيحة احد أيام الصيف لينظر فيما يقدم له من القضايا الجنائية

وكان ذلك اليوم شديد الحرارة ينبيء أوله بما يكون في آخره . . ولذلك فكان جالساً وواضعاً طربوشه بجانبه يتأفف من شدة الحر . . .

وكان وليم بك هذا في الحلقة الرابعة من عمره . ولكنه لا يزال ذو جمال فتان . . الا ان وجهه المشوب بصفرة قليلة يدل على انه اسرف في الملاذ في أوائل شبابه

وكان هذا الرجل ميالاً للاستبداد برأيه اذ كان يظن انه خلق ليطاع لا ليطيع فلم يمنع نفسه شيئاً طلبته بلا رادع له من ضميره . وغير حاسباً حساباً لخالق أو لمخلوق . ولذلك كان المتقاضون يخافونه ويهابونه لما جبل عليه من الكبرياء والاستبداد . . .

وقد جلس اليوم على منصة القضاء متململاً وكله عيون تنظر الى باب القاعة مما يدل على انه ينتظر انساناً . .

وبعد برهة فتح باب الجلسة ودخلت فتاة في الخامسة عشر من العمر رقيقة القوام مليحة الهندام نحيفة الجسم ذات جمال يسلب العقول . . ونظر يؤثر بالانسان بمجرد وقوعه عليه . . ويصحبها قس شيخ يمناها في يسراه . . حتى اذا دخلا امر القاضي فأفسح لهما مكاناً فجلسا . . وأخذت الفتاة تحدق بعينيها الجميلتين بوليم بك كما هي عادة الفتيات متى كنّ في مثل هذا المكان . ولا عجب اذا رأينا القاضي لا يرفع نظره عنها مما يدل على انه رآها قبل اليوم

وكانت هذه الفتاة العاقلة تدعى اسما وهي ابنة ذلك القس الشيخ الذي رأيناه يصحبها . . وكانا قد دعيا مرة قبل هذه لسماع شهادتهما في قضية تأجلت لهذا اليوم

وأخذت القضايا ترد تباعاً والقاضي يفصل فيها بسرور وقد ذهب الملل الذي اعتراه في هذا الصباح . . وهكذا للجمال دائماً سلطان على اذهاب الملل من القلوب وعلى الخصوص قلب قاضينا الفتى

حتى اذا جاءت قضيتهما قامت اسما وأبيها وأديا الشهادة المطلوبة منهما وقد تلطف القاضي كثيراً باسما وبوالدها الشيخ فسمح له ان يؤدي الشهادة جالساً احتراماً لشيخوخته . . . ولو انه لم يتعود احترام الشيوخ . .

وارفضت الجلسة بعد ذلك فتوذد لها القاضي كثيراً ودعا القس الشيخ لتناول القهوة في قاعته الخصوصية . فلبى طلبته . . وطبعاً ذهبت اسما معه . . .

تناول القس الفاضل القهوة وخرج ممسكاً بيد ابنته ملاحظاً اياها بهدو واحتراس . حارساً بامانة ذلك الكنز الثمين الذي وضعه الله بين يديه . . لتسليته في شيخوخته . . جزاء لصلاحه ورأفته به . .

وقد رباها تربية دينية حقيقية وغذاها بلبان العلوم والمعارف . . وشجعها بنصائحه الابوية . . حتى اصبحت وهي في الخامسة عشر . . كأنما هي ابنة خمسين فودعها القاضي بنظرة طويلة اجابته عليها بابتسامة صغيرة . خرجت من بين شفتيها القرمزيتين كشعاع الشمس من وسط الغيوم

وظلا سائرين الى ان وصلا الى بيتهما السكائن في شارع صغير . المكوّن من غرفتين في الاعلى وغرفة في الاسفل ومندرة للضيوف . .

ففتحت لهما الخادمة ودخلا وصعد السلم متكئاً على يد اسما الترفة الناعمة . وخلع القس عباءته والقى بنفسه على كرسيه لتعبه من كثرة السير واسند ظهره الى مسنده وأغمض عينيه لحظة وفتحهما عند ما فتح فمه للكلام قائلاً . . هلمي يا اسما فهاتي كتابك لاسمع درسك فاجابته اسما باسمة وجاءت بكتابها وأخذت تقرأ بصوت عالٍ وهو يصلح لها غلطاتها حتى اتمت درسها فتنحنح القس وقال انك تقدمت كثيراً يا اسما في درسك ومتى جاء متري يكون سروره عظيماً لأجلك . فاحمر وجه الفتاة عند سماعها هذا الاسم

وكان متري هذا ابن اخت القس الشيخ توفت والدته وأسندت امر تربيته الى أخيها فتربى مع اسما في منزل واحد فعاشا كأخوين وكانا يحبان بعضهما حباً شديداً . . . وقد وعده خاله بأن يعطيه اسما ابنته قرينة له اذا اجتهد ونال شهادة عليا . وأدخله احدى المدارس الكبرى فجد واجتهد حتى كان الفائز في كل فرقة يرقى اليها

وكانت الخادمة تعلم اسما الخياطة والتطريز فبرعت فيهما وكانت تحبهما أكثر من كل شيء

وقدمت الخادمة طعام الغذاء لهما فصلى القس صلوة قصيرة وابتدأ ا يأكلان.. ومن يرى القس وشيخوخته يظن انه لا يأكل الا شيئاً يسيراً . . . ولكن من يراه الآن وهو يلتهم كلما امامه يعلم ان قوته الجسدية لا تزال كما هي فهو يأكل كأبن عشرين

وظلا يأكلان ساكتين حتى افتتح القس الحديث فقال . . انا ممنون يا اسما من وليم بك القاضي الذي رأيناه اليوم . . قالت نعم فانه لطيف جداً وانا اشعر اني احبه . . فضحك القس وقال احذري يا اسما فلو سمعك متري الان لاغضبه كلامك . . فابتسمت الفتاة وقالت كلاَّ فانا ومتري اخوان وهو لا يغضب مني مهما قلت . . وانتهى الحديث بانتهاء الشيخ من الأكل فقام لغسل يديه لانه كان يأكل بسرعة كعادته . . وبقيت اسما تأكل بعده حتى اكتفت فقامت هي الاخرى وغسلت يديها

اما القس فذهب الى سريره وتمدد عليه كما هي عادة من هم في سنه ولم يلبث ان اغمض عينيه وغرق في سبات النوم

اما اسما فانكبت على منسجها وابتدأت تطرز والخادمة تساعدها في التطريز وكانت تسلي نفسها بترتيل بعض اعداد المزامير بصوت رخيم يظن من يسمعه انه انتقل الى جنات النعيم

فلنترك اسما الان في عملها ولنعد لوليم بك القاضي الذي تركناه يودع اسما بنظرة طويلة وبعد خروجها اغلق الباب من تلقاء نفسه بغماز في ظهره فلعن ذلك

الباب الذي حال بينه وبين من يهواها

قلنا من يهواها لان وليم بك احب هذه الفتاة من وقت وقوع نظره عليها .. وكان يشعر نحوها بحنين غريب لم يسبق منه لأمرأة قبلها . فكان يفتكرها في نومه وفي يقظته وفي كل اوقات اعماله . . لذلك فقد رأيناه يتململ في صباح هذا اليوم وينظر للباب لأنه كان ينتظرها اذ كان يعلم ان اليوم هو موعد سماع شهادتها

مضى الاسبوع وجاء يوم الجمعه فرأى القاضي فراغاً في وقته فاراد ان يقوم بواجب عليه نحو القس وابنته او بالحري نحو نفسه فيرد لها الزيارة

وما وافت الساعة العاشرة حتى استقل عربته وسارت تخترق الشوارع كما اخترق الحب قلبه . . حتي وقفت امام منزل القس فنزل الخادم وطرق الباب ففتحته الخادمة . فسألها عن القس وكان موجوداً فابلغته قدوم القاضي فنزل هو وابنته لاستقبال هذا الضيف العظيم واخذاه الى القاعة العليا واعتذرا له عن بساطة فراشها

و بعد ان جلس قليلاً وتناول القهوة افتتح موضوعاً دينياً كثير الذيول لكي يطيل وقت جلوسه فأخذ القس يشرحه له باسهاب وتطويل كما هي عادة اغلب القسوس في مثل هذه الاحوال

اما اسما فلما رأت ان لا شأن لها في هذا الموضوع وجدت كتاباً بجانبها ففتحته وأخذت تلهو بالقراءة

وظل القس يشرح موضوعه حتى انتهى وقد استغرق نحو النصف ساعة كان وليم بك في اثنائها يتمتع بنظر اسما ولا يرفع بصره منها متلذذاً برؤية هذا الجمال الفتان وهو لا يفهم شيئاً مما يقوله حضرة القس البسيط

و بعد ذلك خرج حضرة القاضي وودع كما قوبل بالحفاوة والاكرام وقد دعاها لزيارة منزله فوعداه بذلك وركب عربته وعاد لبيته

ويوم الاحد بعد صلوة الصباح ذهب القس بنته لزيارة منزل وليم بك فوجداه خارجاً لعمله فعاد معهما وتناولوا القهوة وخرجوا جميعاً . . وتوالت الزيارات بين القس والقاضي ثلاث سنوات

فصارا صديقين وارتفع من بينهما التكليف وكان القس يفتخر بصداقته كما هي عادة من يصادق رجلاً كبيراً . . .

﴿ الفصل الثالث ﴾

« سفالة الانسان »

كان حب القاضي لأسما يزداد من يوم الى يوم حتى اضناه وانهك قواه فكان يحبها ويحترمها . . . يهواها ويخافها . لان اسما كانت من الفتيات العاقلات اللواتي يقفن عند حدودهن مع الرجال . فكان قلما يراها تضحك وان رآها فتبسم خفيف ولا عجب فهي تربية رجل شيخ جرّب الامور ومارس الحوادث وحارب الزمان وغلبه نحو ثلثي قرن . . لم يدخر وسعاً في تربيتها ولم يبخل عليها بنصيحة كبيرة كانت او صغيرة . . .

وكان وليم بك يعجب عن نفسه لمعاملته لها هذه المعاملة مع انه الرجل القوي المحبوب من النساء اللاعب بعقولهن . فصمم ان يسير في طريق أخرى طالما سار فيها لعله يصل الى مطلوبه وينال مناه . . .

وكان لم يسبق له ان وجد اسما منفردة فان لم تكن مع أبيها فمع الخادمة كل مدة معاشرته لهذه العائلة الصغيرة

ففي احد الايام زار منزل القس ففتحت له اسما الباب وقبل ان تعلمه بعدم وجود أحد فيه كان هو صاعداً السلم درجتين درجتين حتى انتهى الى آخره ودخل الاوده وجلس على كرسي فيها كعادته منتظراً اسما التي استغربت هذه المعاملة في أول الامر ولكنها نسبت ذلك الى اختلاطه بهم فأغلقت الباب وعادت اليه . .

وجلست اسما بعيداً عنه قليلاً فسألها بتودد ان تقترب منه فطاوعته لما رأت في صوته من الحنان واقتربت بكرسيها الى جانب كرسيه . . فتناول يدها بسرعة وأدناها من شفتيه وقبلها . . .

فاصفرت الفتاة وسحبت يدها بعنف من بين يديه واجابته بنفور واحتقار انهُ رجل سافل

وكأن هذه الاهانة اعقدت لسان القاضي فظل ساكتاً ينظر اليها بتردد و بعد ذلك اذرف دمعة سقطت على ركبتيه . . . . . .

ولعل هذه الدمعة هي الاولى التي أذرفها امام امرأة . وهو لم يبكي نادماً على ما فعل . . بل بكى لانه لم يتعود ان يهان . . ولانه لا يقدر ان يجيبها بمثلها لانه يحبها

وكأن نزول الدمع اطلق لسانهُ فقال ماذا فعلت بكِ يا اسما حتى اهنتني ؟

فأجابته بشجاعة . اهنتك لاني علمت انك شرير . وأنا لا أريد ان أراك مرة ثانية . فاترك زيارتنا . وسأبلغ أبي عند مجيئه باعمالك

قال القاضي كلا يا اسما فأنا لا اقصد شيئاً محرماً في ما قلتُ بل كل ارادتي هي ان اتخذكِ قرينة لي . وأرجو ان تقبليني زوجاً لكِ لاني أحبكِ . . . قال ذلك بلؤم ودناءة . . ويقصد به ان يلقي شركاً طالما ألقاه فاصطاد به قلوب فتيات ولكن شتان بين رزانة وجنون . . .

فقالت اسما . اذا كان قصدك هذا فهو شريف وانا أسامحك ولكنني ارفض قبولك زوجاً لي فقد سامت قلبي لغيرك وعاهدته على ذلك . . ومع كلٍ فامري ليس بيدي . وكان يمكنك ان تتبادل مع ابي الكلام في هذا الموضوع قبل ان تفاجئني به وتفعل بي ما تأباه نفسي وأما الآن وقد أصبح وجودك ثقيلاً عليَّ فارجوك غير مطرود ان تتركني لأفكر في امري . . .

وبقي القاضي يسمع هذه الاهانات وهو ساكت وكذلك النفس الشريرة فانها تنحط دائماً امام الشرف وتأدية الواجبات

وبعد ان فرغت اسما من كلماتها الجارحة اغتاظ القاضي وانتفخت اوداجه واحمرت عيناه واصبحت هيئته تخيف الرجال الاقوياء . . . فكم بالحري أسما تلك الفتاة الرقيقة — وارسل القاضي نظرة سريعة الى الخارج فوجد البيت منفرداً من الجهات الاربع . . .